ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

النار في حياة وعقيدة
إنسان عصور ما قبل التاريخ

د. زينب عبد التواب رياض خميس
مدرس الآثار المصرية القديمة
كلية الآثار – جامعة أسوان
أسوان – جمهورية مصر العربية

مُلَخّصْ

هناك صراع لا يمكن إنكاره بين الإنسان والحياة منذ عصور ما قبل التاريخ؛ صراع تسير أحداثه غير متناغمة ولكنها متصلة، ففي بيئة طبيعية غير مهيأة عاش الإنسان الأول باحثًا عن سبل تمكنه من أن يحيا في أمان، وهذا كان كل ما يبتغيه آنذاك، اعتمد على التأمل والتجربة للوصول إلى مراده، وكانت النار أحد أهم الأشياء التي اكتشفها الإنسان وعرفها بحكم الصدفة بحدوثها في الطبيعة ضمن الظواهر الطبيعية التي كانت تحدث آنذاك، وللنار أهميتها التي غيرت من مسيرة حياة الإنسان بل غيرت مجرى التاريخ، فبمجرد أن نتخيل عدم وجود النار في حياة الإنسان الأول ندرك كم كانت حجم المعاناة التي كان يعيشها، فمن المؤكد أن حياته كانت شديدة الشبه بحياة الحيوان، يأكل النباتات مباشرة، ويتناول لحم طرائده نيئة من دون طهي، ويبيت في كهوف الجبال المرتفعة تحصنًا من هجمات الحيوانات الضارية، وحينما يحل موسم الشتاء يحيا داخل الكهوف والمآوى الصخرية أو يهرب نحو المناطق الدافئة، وحينما تشتد الحرارة ينزح نحو المرتفعات الأقل برودة، لكن كل ذلك تغير بمجرد وصول النار لقبضة يده، فالنار أحدثت تبديلاً صارمًا لكل ما سبق من سلوكيات. ومن الصدفة إلى معرفة كيفية الإتيان بالنار كان التحول الذي مهد إلى نشأة الحياة والاستقرار بكل ما تعنيه الكلمة، فبمعرفة النار عرف الإنسان طهي الطعام، وتعرف على طرق الإضاءة التي جعلته غير مضطر للهروب باحثا عن الضوء، وعرف طرق التدفئة، وعرف العديد من الصناعات لاسيما الصناعات الفخارية، بل واستخدم النار في إحداث شقوق في الصخور ليستخدم الحجر في صناعة الأدوات الحجرية، وشيء فشيء بدأ الأمر يتحول من أهمية دنيوية إلى أهمية عقائدية، فبدأ الإنسان البدائي ينظر إلى النار نظرة تقديس، فأصبح لها داخله مكانة كبيرة تقارب العبادة. فغيرت النار بذلك من حياة وفكر إنسان عصور ما قبل التاريخ، وأخذت منحى يتجه به نحو نشأة الدين والبحث عن الإله، الذي كان يهابه مهابته لكل خطر يحيط به، فمن الخوف عرف التدين، ومن النار وضع تخيل لطبيعة الإله ولكن بصورة غامضة يخافها ويقدسها.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ١٩ أغسطس ٢٠١٨
تاريخ قبول النشر: ٣٠ أغسطس ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:
النار، الاستقرار، الإضاءة، الأمان، طهو الطعام، صناعة الفخار، التعدين، الفكر الديني

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0053264

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
زينب عبد التواب رياض خميس. "النار في حياة وعقيدة إنسان عصور ما قبل التاريخ".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الواحد والأربعون: سبتمبر ٢٠١٨. ص١٠ – ٢٢.

مُقَدِّمَةٌ

كان استخدام النار من أعظم الاكتشافات التي توصّل إليها الإنسان في عصور ما قبل التاريخ، ونتفق كل الدراسات على أن علاقة البشر بالنار علاقة أزلية وضاربة في عمق التاريخ، حيث لا تخلو حضارة من حضارات عصور ما قبل التاريخ من إشارة أو أثر يؤكد حقيقة تلك العلاقة. ولقد كانت النار بمثابة المحرك الفعلي لمسيرة الحضارة الإنسانية، ذلك أنها مكنته من أمور عده؛ فقد وفرت له الإضاءة ومكّنته من التدفئة والطهي، ووفرت له الأمان باستخدامها في تخويف الحيوانات المتوحّشة وإبعادها عنه، وبعد ذلك أتاحت له معرفة العديد من الصناعات التي كان أهمها صناعة الفخّار. (غلاب، ١٩٩٧: ٢٤٤) وإذا كانت النار قد لعبت دور هام في تغيير حياة الإنسان البدائي وتحولها نحو

شيء من الاستقرار، فقد لعبت أيضًا دور هام في فكر وعقيدة الإنسان الأول، ولم يحدث ذلك فجأة ولكنه حدث بخطوات وئيدة من التأمل، إذ ذهب خياله يتصور أشياء عديدة ارتبطت في ذهنه بأمور غامضة وبعالم غيبي يخشاه، وارتبطت بالعالم الآخر أو العالم السفلي فيما بعد، وكانت معظم أساطير أصل النار أو غالبيتها تشترك في الاعتقاد بان مصدر النار ومكانها الأول الذي جلبت منه هو العالم السفلي.(Salo, U.,1990)

أولاً: بداية معرفة الإنسان للنار

كانت بداية معرفة الإنسان للنار قد تحققت من خلال رؤيته للنار التي أوقدتها أسباب الطبيعية، وكان ذلك يحدث بوسائل مختلفة، فأحيانًا يثور بركان ويقذف كميّات كبيرة من الحمم (اللافا)، ممّا يؤدي إلى إشعال النار في المنطقة المحيطة به، وقد تحمل الرياح جمرات متقّدة إلى مسافات بعيدة عن مبعث النار، وفي المناطق الشديدة الحرارة، يسبّب الجفاف ووطأة حرارة الشمس المسلّطة على الحشائش الجافة أحيانًا حدوث احتراق ذاتي، وهذا ما لايزال يحدث اليوم في بعض المناطق. (Craig D., 2002:143-150) وكان البرق أيضًا من العوامل الطبيعية التي أدت إلى معرفة النار فيمكن أن يؤدي البرق إلى إشعال نارٍ في شجرة خلال عاصفة رعديّة، وتنتقل جمراتها بفعل الرياح من مكان إلى آخر ومن كلّ ذلك كانت خبرات الإنسان الأول في معرفة النار. Heinselman, M.L., 1973:329–(382) و (Stephens, S.,2007:205-216)

وعندما يؤرخ العلماء لمسيرة الإنسان في رحلة تطوره فإنهم عادةً يلاحظون أهمية اكتشاف النار وتأثيرها على هذه المسيرة، ولو تركنا العنان لنتخيل حياة مليئة بالمتناقضات رغم بساطتها، وبالأخطار والخوف والبحث عن الأمان، لأدركنا أنه لابد وأن إنسان هذا العصر كان متأملاً ومراقبًا للطبيعة كي يتمكن من السيطرة عليها. وأغلب الظن أن معرفة الإنسان للنار في البداية كانت عن طريق تعرفة وإدراكه لمصادرها الطبيعية كالبراكين والصواعق التي تصيب الأشجار من حوله مخلفة حرائق كبيرة، وأغلب الظن أن ذلك قد حدث خلال العصر الحجري القديم الأسفل، إذ كان يحصل على هذه النار من مصادرها السابق ذكرها، ويحاول الحفاظ عليها وذلك قبل اكتشافه لطريقة إيقاد النار بنفسه، والتي يعتقد أنها كانت عن طريق المصادفة. (غلاب، ١٩٨١: ١٠٩-١١٦)

فلطالما راقب الإنسان البدائي الطبيعة والتي كانت النار أحد أهم مفرداتها، الى أن استطاع بفرط تجاربه معها من السيطرة عليها بفضل عقله الذي تطور إلى درجة كافية تمكنه من الملاحظة والربط بين المعطيات والنتائج، ولقد لاحظ الإنسان أن كافة الأحياء تخشى النار وتتفادها وفي نفس الوقت لاحظ أن النار تتبع قانون معين لكي تستمر، وهي حاجتها للاحتراق على شيء فإذا انعدم المصدر انطفأت، والملاحظة الأخيرة وهي قدرة الماء على إطفائها بسهولة إذا كانت محدودة. Early Humans, (2010:1-2)

بهذه الأمور الثلاثة الأولية والهامة وجد الإنسان ما يكفي من معطيات تؤدي به إلى إمكانية السيطرة على النار والتحكم بها ،والمؤكد أن استغلال الإنسان للنار متقدم على قدرته على إشعالها ، أي أن الإنسان حاول استغلال النار التي تنشب طبيعيًا من حوله بالتواجد على حوافها ثم احتاج إلى نقل النار إلى حيث يريد فتمكن من اخذ قبس منها ثم احتاج إلى إطالة عمرها فأخذ يغذيها بالمواد التي لاحظ أنها تشتعل عليها، وبعد أن ألف النار واستأنها لهذه الدرجة، اعتادها فاحتاج إليها أكثر من المرات التي تجود عليه بها الطبيعة وحينها اكتشف أول وسيلة لإشعالها. (De Lumley,2006:149-154)

جاءت أقدم الأدلة التي تثبت معرفة النار وتمكن الإنسان من إيقادها بنفسه والسيطرة عليها في أكثر من مكان، ففي جنوب أفريقيا عثر في كهف (Wonderwerk) وهو من الكهوف جيدة الحفظ، عثر على أدلة أثرية ثبت من خلالها معرفة واستئناس النار منذ نحو مليون عام مضت Parker, C.H, (2015:31) وفي فلسطين ثبت معرفة الإنسان للنار وسيطرته عليها منذ ٨٠٠,٠٠٠ على الأقل (Gilligan, I.,2010: 38)، وقد عثر في العديد من المواقع الأشولية بمنطقة نحال أورين وعين الملاحة بفلسطين على أدلة استئناس النار والسيطرة عليها من خلال ما عثر عليه هناك من بقايا أدوات حجرية ومصنوعات حجرية وقطع خشب يبدوا عليهم آثار الاحتراق Alperson-Afil, (N.,2007:1)، وهناك أدلة أخرى ترجع منتصف العصر الحجري القديم الأوسط تؤكد على تمكن الإنسان من إيقاد النار بنفسه، فقد عثر على بقايا مواقد وعثر كذلك على قطع من كبريتيد الحديد الطبيعي تصلح للاستخدام كقداحات للنار في كهوف ومأوي عده بإنجلترا وألمانيا وأمريكا الشمالية، كانت تلك القطع قد اختلطت مع بقايا من الفحم مما يؤكد على الاستخدام الفعلي لها. (Parker,2015:65-66,71)

ويمكن القول أن تأريخ سيطرة الإنسان على النار سواء في أفريقيا أو أسيا أو أوروبا إنما يرجع تقريبا لما يزيد عن ١,٢٥ مليون عام ق.م. (Bird, & (Robert J. & others, 2009:6) M.,1995:141) ولابد من إدراك أن معرفة الإنسان للنار وحاجته لإشعالها في الحضارات المبكرة كان أمرًا متفاوتا من حضارة إلى أخرى طبقًا لظروفها البيئية والجغرافية. (Marshack, A.,1991:172) وأقدم استخدام للنار معروف

حتى الآن - حسب ما تؤكده الشواهد الأثرية - كان من قبل انسان بكين منذ حوالى خمسمائة ألف سنة ق.م ، حيث عثر في كهف شيكوتين في شمال الصين على آثار للنار وللمواقد التي طهى عليها هذا الإنسان طعامه Weiner, S., Goldberg, J., Bar-Yosef, 1998:251-253)، ويرى الباحثون في علوم الإنسان أن إنسان بكين عرف النار واستخدمها في التدفئة والطهو وإبعاد الحيوانات المفترسة عن كهفة ، ويضع هؤلاء الباحثون إنسان بكين في فترة العصر الحجري القديم الأسفل، مؤكدين أن إنسان بكين قد عرف النار واستخدمها ، ولكنه لم يعرف كيفية إشعالها، لذلك فقد اعتمد على ما توفره له مصادرها الطبيعية. (Desmond, C.,1976:106) وهذا على النقيض من أصحاب الحضارة الأشيلية الذين تمكنوا من صناعة النار كما يظهر بوضوح في كهف الطابون بجبل الكرمل وكهوف وادى "ماكابان" بأفريقيا. (غلاب، ١٩٩٧: ٢٤٤)

ثانيًا: كيفية إشعال النار

بعدما معرفة الإنسان للنار كان لابد من الوصول إلى طريقة لإشعالها والسيطرة عليها كي ينتفع بها وقت احتياجه لها، وقد عرف الإنسان البدائي طريقتين لإشعال النار هما:-

١/٢-الطرق

كانت طريقة الدق أو "الطرق" هي الطريقة الأولى التي ساد استخدامها في العصر الحجري القديم والعصر الحجري المتوسط، إذ تمكن بعض سكان الكهوف من إشعال النار بواسطة طرق قطعة من الصوان مع كتلة من حجر الدم (غلاب، ١٩٩٧: ٢٤٤)، مما كان ينتج معه شرر ساخن، ومع وجود بعض الأعشاب والأخشاب الجافة فإنها تشتعل كنتيجة طبيعية لهذا الشرر، ولعل هذه الطريقة كانت قد عرفت عن طريق المصادفة. (De Jesus, S.,1984:278) ويبين (شكل:١) أداة صوانيه استخدمت لإشعال النار من قبل إنسان النياندرتال، عثر عليها في محجر كامبيتلو بإيطاليا وترجع إلى حوالي ٢٠٠,٠٠٠ ق.م، ويلاحظ عليها وجود بقايا مواد لاصقة بدراستها تبين أن إنسان النياندرتال كان يستخدم لحاء شجر البتولا وهو من المواد سريعة الاشتعال، ويبدو انه قد أدرك تلك الخاصية فاستخدمه ليساعده على إشعال النار عند طرق تلك الأدوات الحجرية معا. (Roebroeks, W.,2011:5210, fig.1)

وكان من أهمية أدوات إشعال النار أو "المطارق الحجرية" أن عثر عليها موضوعه قصدا كنوع من المتاع الشخصي بدفنه آدمية ترجع للعصر الحجري الحديث، تم اكتشافها بموقع Schipluiden, بهولندا، جاء المتوفى راقدا في وضع القرفصاء (شكل: 2) وكان يصحبه ثلاثة من الأدوات التي كانت تستخدم لإشعال النار، من بينهم أداة معدنية كربونية، إذ كان استخدام حجر الصوان والمعدن من أفضل الطرق البدائية التي عرفت لإنتاج شرار مباشر. (Sorensen, A.C.,2012:19-20)

٢/٢-الاحتكاك

كانت طرقة الاحتكاك هي الطريقة الثانية لإشعال النار، وقد عرفت هذه الطريقة في العصر الحجري الحديث، فمنذ حوالي ١٠,٠٠٠ ق.م، عثر في ملجأ صخري بالقرب من نهر بيكوس، وهو أحد أماكن سكنى الإنسان الأول غرب تكساس بأمريكا، على ساق نبات اليوكا وعليه وجد أثار ثقوب عديدة، وثبت بالدراسة أنها أداة استخدمت في إشعال النار بالاحتكاك حيث كانت تمسك عصا ساقها منتصبة، ويديرها الإنسان بين يديه، فيؤدي الاحتكاك بين ساق الغزل ذو الثقوب والعصا المنتصبة في يديه إلى شيء من الدخان، ثم شرر، ثم يلمع الجمر. وهي طريقة استخدمتها نساء السكان الأصليون جنوب غرب أمريكا، حيث استخدمت المرأة الجمر لإشعال النار في كومة صغيرة من نبات اليوكا المجففة الذي تميز بأوراقه ذات الألسنة الرقيقة، والتي عندما تجف تشتعل فيها النيران بسهولة. (Robert J. & others, 2009:10-11) (شكل:٣) ولقد اشتملت هذه الطريقة على ثلاثة أنواع من طرائق الإشعال بالاحتكاك وهي:

طريقة حرث النار: وفيها يُستخدم قطعة خشب صلبة في حك قطعة أخرى طويلة من الخشب اللين.

نشر الخشب: وهي طريقة مشابهة للطريقة الأولى حيث يمرر أو يحرك الطرف الحاد لعصى كالخيزران عبر مجرى ضيق.

مثقاب النار: وفيها تحرك عصى ذات طرف مدبب حاد حركة دائرية في ثقب (غلاب،١٩٩٧: ٢٤٤)، ولابد من وضع بعض الأعشاب الجافة أو كسرات الخشب أو أفرع الأشجار الجافة بالقرب من الثقب الذي تدار فيه قطعة الخشب المدببة، فتشتعل النار نتيجة عن هذا الاحتكاك (Robert J. & others, 2009: p.11, fig.11) & Desmond, C.,1976:106) ويبدو أن طريقة أو أكثر من تلك الطرق كانت قد استخدمت قبل نهاية العصر الحجري المتوسط، غير أن اختراع النار قد ظهر مستقلا في أقاليم مختلفة ومن ثم فهناك اختلاف في الطرق تبعا لطبيعة الأخشاب المتوفرة، واختلاف نوع الوقود، ففي المناطق الغابية مثلا كانت الأخشاب متوافرة ومن ثم استخدمت في إشعال النار (Pausas, J., & Keeley, J. E.,2009:595)، على حين عوض سكان التندرا وصياد الماموث فقر بيئتهم في الأخشاب باستخدام عظام الماموث كوقود. (غلاب، ١٩٩٧: ٢٤٥)

ولقد استمرت طريقة إشعال النار بالاحتكاك متبعة في مصر ليس فقط في عصور ما قبل التاريخ؛ وإنما طوال العصور المصرية

وحتى عصر الدولة الحديثة على أقل تقدير، إذ يبين (شكل: 4-5) مثقاب لإشعال النار، وهو من أكثر القطع تشويقًا ضمن مجموعة الأدوات المنزلية واللعب التي وجدت في مقبرة الملك توت عنخ آمون، والموجودة بالمتحف المصري، المثقاب عبارة عن يد أو عود خشبي ولوحة خشبية بها اثنى عشر ثقبا محفورة في لوحة الإشعال، وقد وجد بداخل هذه الثقوب كمية من الراتنج لإمكانية عمل شرارة بواسطة الاحتكاك كي يلتقطها الفتيل ويعلو العود الخشبي رأس منفصلة لتسهل التحكم فيها أثناء الدوران. (Burton, H., 2004:1317)

ثالثًا: أهمية وتأثير النار في حياة إنسان ما قبل التاريخ

كانت معرفة النار من أهم خطى التطور التي غيرت من مسيرة حياة الإنسان على كافة الأصعدة، سواء اجتماعيًا، سلوكيًا أو نفسيًا، (Bellomo, R.V.,1994:173) فلقد أسهمت السيطرة على النار، التي بدأت في الفترة الموستيرية خلال العصر الحجري القديم الأوسط في تطور البنى الاجتماعية من خلال الدور المهم والأساسي الذى لعبته في تغيير الحالة النفسية للجماعات البدائية، حيث أسهمت النار في رفع معنوياتهم وذلك لتبديدها الظلمة الموحشة، مما ساعد على تقوية العلاقات الاجتماعية بين أفراد الجماعات المتجاورة من جهة، وزاد من قدرتها على طرد الحيوانات المفترسة التي يمكن أن تنافسهم بالالتجاء إلى الكهوف. (أبو غنيمة، ٢٠١٠: ١٤٢) كما أسهمت النار في تنمية الروح الجماعية عند الإنسان، مما جعلته يتعود على العيش ضمن الجماعة على نحو أكثر تقبلا من السابق، بفضل الدفء والنور الصادر عن النار المشتعلة في المواقد، التي كان يتجمع حولها أفراد الجماعة في أوقات راحتهم بعد عمليات الصيد أو الجمع، أو في أوقات المساء. (أبو غنيمة، ٢٠١٠: ١٤٢) ومثلما تغير سلوك الإنسان الغذائي بفضل النار، فإن الحرارة المنبعثة عنها أكسبته سلوك مقاومة البرد، فقد وفرت تلك الحرارة له الآلية المثالية لتوفير الأجواء الدافئة، وهذه الآلية منحته بالتالي فكرة جديدة لسلوك جديد ومهم لم يكن ليتحقق لولا وصوله لهذه المرحلة من تطويع النار.. وهو الاستيطان، Ancient Civilizations,2017:27, 30 إذ لم يعد مضطرًا للهرب من البرد، بل يبقى في مكانه ويتكفل النار بالباقي، وهنا نلاحظ كيف تطورت الحياة بشكل متتال، والاستيطان كان بلا شك أحد أهم الأبواب التي طرقها، فهو المدخل الأول لمفهوم لازلنا نتداوله ونربي عليه أنفسنا وأجيالنا حتى اليوم، إنه مفهوم الانتماء، فالإنسان الذي لا ينتمي إلى وطن يحبه ويستميت للدفاع عنه إنسان بلا شك ضائع ومحروم ويفتقد للأمان، ومما ساعد الإنسان الأول على الاستيطان كذلك تمدد أسرته بشكل عرضي، أب وأم وأخوة وأخوات وأبناء وأحفاد النواة الأولى لتشكل العشيرة التي يخدر جميع أفرادها من سلالة شخص واحد، ولأن المكان بادئ الأمر يقطنه مجموعة من الأسر، فمن البديهي أن تتحول هذه الأسر إلى عشائر متعددة سميت فيما بعد بالقبيلة ومن هنا كانت معرفة لنظام الاجتماعي. (مونتاغيو، ١٩٨٢:٨٣-٨٨)

وأيضًا من التأثيرات التي أحدثتها النار في حياة الإنسان البدائي تغير نمط نشاطاته اليومية(Steven R.J., 1989:1) ، فلم يعد مقتصرًا على ساعات النهار فقط، إذا ساعده ضوء النار في توسيع تحركاته لتشمل ساعات الليل كذلك، كما وأن النار حققت له الكثير من التأمين الذاتي والحماية اللازمة ضد الحيوانات المتوحشة التي لاحظ أنها تخاف من وهج النار، فأمست النار رفيقته حينما يتحرك ليلاً، وجارته حينما يبيت برفقة عائلته، الأمر الذي أدى بالحيوانات للهرب والانزياح نحو مناطق بعيدة غير مأهولة بالإنسان والنار. (أبو غنيمة، ٢٠١٠: ١٤٦)

رابعًا: استخدامات النار في عصور ما قبل التاريخ

تعددت استخدامات النار، وتداخلت أغراضها التي شكلت طبيعة حياة إنسان عصور ما قبل التاريخ كما يلي:-

٤/١-الإبداع الفني

كان التحول نحو معرفة النار والسيطرة عليها والتحكم فيها هو أول خطى تحكم الإنسان الأول في حياته، إذ أصبحت النار بالنسبة لإنسان ما قبل التاريخ هي الدافع لتقدمه في شتى النواحي، فبنظرة متفحصة لما تركه إنسان عصور ما قبل التاريخ على جدران الكهوف من رسوم ولوحات فنية، يمكننا أن نتخيل كيف تمكن من رسم تلك اللوحات، لاسيما وأن العديد من تلك الرسوم كانت بداخل كهوف مظلمة وذلك على غرار رسوم كهف لاسكو بفرنسا (Mauriac, M.,2011:10) (شكل: ٦) والتي رسمت في عمق الكهف بالداخل في طيات الظلام وصعوبة الرؤية، ورغم ذلك أجاد الرسم وأجاد استخدام الألوان التي لاتزال باقية حتى اليوم ، بل وعبر برسوماته عن حركات الحيوانات في واقعية واضحة، ولم يكن الإنسان البدائي ليستطيع رسم مثل هذه اللوحات الرائعة دون استخدام النار كوسيلة للإضاءة. (Genty D., 2011:479)

٤/٢-الإضاءة:

يُعتقد أن أولى استخدامات الإنسان للنار كانت في إنارة ظلمات الليل الداكن وتبديد ظلام الكهوف التي كان يأوي إليها، ولابد أنه كان هناك أشكال مختلفة لوسائل الإضاءة البدائية والتي كان منها الشعلة التي استخدمها إنسان ما قبل التاريخ في

إضاءة ظلمة الليل من حوله (أبو غنيمة، ٢٠١٠: ١٤٢)، ولعل الإنسان كان قد لاحظ أن دهن الحيوانات يؤجج لهب النار حين يسقط عليها، وتوهج لهبها وتزداد إضاءة كهفه ويسري في أركانه نورًا ساطعًا، وربما اهتدى بذلك إلى تهيئة فجوة في كهفه يضع فيها الدهن والأعواد وما تعرف عليه من مواد الاحتراق لتكون بمثابة مصباح ثابت، وبمضي الزمن استدل على أداة مجوفة يوقد فيها النار فيحملها أثناء تنقله، وكان ذلك هو المشعل أو المصباح الذي وفر أول وسيلة إضاءة عرفها الإنسان. (العاني، ٢٠٠٢: ٢٢) ثم تطورت وسائل الإضاءة بعد ذلك وعثر على العديد من نماذج المشاعل في مصر منذ أقدم العصور. (للمزيد: إبراهيم، ١٩٨٧)

٤/٣-الحماية:

بعد أن ساعدت النار الإنسان على أن يسيطر جزئيًا على بيئته، استطاع حماية نفسه بواسطتها من الحيوانات الضارية التي كانت تهاب النار وتفزع منها، فمنحته النار بذلك الشعور بالأمن بعد أن هدأت نفسه واستقوى بها على الحيوانات التي كانت تنازعه وجوده. (العاني، ٢٠٠٢: ٢٢) ففي جنوب غرب الولايات المتحدة استخدم السكان الأصليين النار كوسيلة للحماية وصيد الحيوانات أو إبعادها تجنبًا لأذاها، إذ كانت تثبت شعلة نار في السهم ويتم إطلاقها على الحيوان المراد إبعاده أو صيده، ويتم عمل حلقة من النار حول الحيوان حتى لا يتمكن من الهروب. (Fowler, C., & Konopik, E., 2007:167-177)

٤/٥-التدفئة:

كانت النار بالنسبة للإنسان البدائي تعد من أهم وسائل التدفئة في برودة الشتاء القارس (Ancient Civilizations,2017:27, 30)، التي لم يكن لينجو منها إلا بارتداء بسيط الملابس التي لا تغنى من شعور بالبرد. (ديورانت، ١٩٨٨: ١٢-١٣) فقد قدمت النار الدفء والنور والحماية لأفراد الجماعة في مناطق سكناهم أو في المناطق الخارجية، حيث انتشر وجود المواقد في مواقع العصر الحجري القديم الأوسط والأعلى بمناطق عدة. (أبو غنيمة، ٢٠١٠: ١٤٢)

٤/٦-طهو الطعام:

مما لا شك فيه أن معرفة الإنسان للنار كانت بمثابة نقطة تحول جوهرية في حياته، إذ نقلته من مصاف آكلي اللحوم النيئة إلى إنسان ذي صفات حضارية تميزه عن غيره من المخلوقات. (صالح، ١٩٨٠: ٦٤) ومن ثَمَّ كان طهو الطعام أهم إبداعات النار في حياة إنسان عصور ما قبل التاريخ، فلقد أثر استئناس النار على التكوين الطبيعي للإنسان Ancient Civilizations,2017:33، كما أثر أيضًا على حضارته وعلى تطوره الفسيولوجي والجسدي، إذ لم يعد بحاجة إلى بذل الجهد في تناول طعامه (Kakade M.L. & Liener. I.L., 1973: 231-241) فمعرفته للطهو وفرت جهده الذي كان يتطلب لتناول الطعام نيئا، الأمر الذي انعكس على تحسن صفاته الشكلية وخاصة صغر حجم الفكين عما كان عليه من قبل معرفته لتناول الطعام المطهو. (شكل: ٧) (سيد، ١٩٩٩:٢)

ولعل أول ملامح استفادة الإنسان من النار في الطهو أيضًا تعدد نوعية طعامه، لأنه بدأ يطهو عليها أنواعًا مختلفة من ثمار الأرض، وبدأ يميز النكهات المختلفة، ومن المؤكد أنه بعد سلسلة من تجارب الطهي على النار أصبحت لديه قائمة بما يصلح طبخه وما لا يصلح، ولقد كان من المظاهر الأساسية التي ميزت العصر الحجري الحديث هو وجود تنوع كبير في المواد الغذائية كنتيجة لمعرفة الزراعة واستئناس الحيوان من ناحية، وتعدد طرق طهو الطعام من ناحية أخرى. (غلاب، ١٩٩٧: ٣١٢) ولقد عرف الإنسان البدائي خلال عصور ما قبل التاريخ منذ ١٠,٠٠٠ ق. م تقريبا طريقة للطهو تجمع بين تقنية استخدام النار والحجر معًا، ففي شمال أمريكا عرف السكان الأصليين هناك طريقة طهو الطعام على الحجر بعد تحميته بالنار، بحيث تعمل شدة درجة حرارته المكتسبة على إنضاج أنواع معينه من الطعام. (Parker,2015:71-72)

خامسًا: استخدام النار في صناعة الأدوات الحجرية

ربط أغلب الباحثين بين معرفة الإنسان للنار وبين تشكيله للأدوات الحجرية، فقد كان من أهم إسهامات النار دورها في تطوير المستوى التقني لاقتلاع الأحجار واقتطاعها لتشكيل وصناعة الأدوات الحجرية بعد تعريضها للنار (Ancient Civilizations,2017:32)، وهذا ينطبق أيضًا على الأدوات المصنوعة من الخشب والعظام حيث كان للنار دور في تشذيبها وصقلها. (أبو غنيمة، ٢٠١٠: ١٤٢) ولقد أشارت أحدث الأبحاث إلى استخدام النار في تقنية صناعة الأدوات الحجرية في بعض مواقع عصور ما قبل التاريخ، حيث عثر باحثون من جنوب أفريقيا والولايات المتحدة على مجموعة من الأسلحة الصخرية المعالجة حراريًا بالنار، في أقصى الطرف الجنوبي لأفريقيا، وتعود إلى أوائل البشر المحدثين قبل حوالي ٧٢ ألف سنة، وربما أبكر من ذلك، قبل ١٦٤ ألف سنة (Goldberg, P., & Others,2009:95-122).

وبحسب ما تم اكتشافه يمكن القول أن استخدام النار لمعالجة الأدوات حراريًا بواسطة الإنسان كان أقدم بخمسين ألف سنة مما كان يعتقد أهل الاختصاص، ووفقًا لنتائج الاكتشاف، فقد توصّل إنسان العصور الحجرية في جنوب أفريقيا إلى إدراك أن تسخين قطع من الصخور النارية ييسر عملية ترقيقها، بما يتيح تشكيلها كشفرات، وسكاكين، وأدوات أخرى Jacobs, Z., &

(Others,2008:733-735)، وقد قام العديد من الباحثين بإجراء تجارب عملية كنوع من المحاكاة لعملية صناعة الأدوات الحجرية بمساعدة النار، تمامًا كما يفعل الأفارقة الأوائل عند تصنيعهم لأدواتهم الحجرية، إذ كانت معالجة الصخور حراريًا إحدى التقنيات التي أتاحت لهم التكيف في البيئات التي كانوا ينتشرون فيها بأفريقيا-(Wadley, L., & Others, 2009:9590-9594) لذلك قام الباحثون بتسخين أنواع من الصخور فوق حفرة نار، حيث ترققت واتخذت لونًا أحمر مصقولاً (Watts, I.,2002:1-14) وأصبح من اليسير تشذيبها والمرجح أن الإنسان البدائي في تلك القبائل كان قد استخدم تلك الأدوات الحجرية وثبتها في مقابض خشبية لصيد وذبح الحيوانات. (Clark, L.,2015:A5) ولا شك أن هذه الحرفية تطلبت تفكيرًا مركبًا، وهو مؤشر على ذكاء عال لإنسان العصور الحجرية؛ فقد كان عليه جمع الحطب، وإضرام النار فيه، وتشكيل الحجر، ثم تثبيت مقبض للحجر باستخدام مواد لاصقة طبيعية، ونظرًا لأنها كانت تقنية متطورة، فهو أمر ينطوي على استخدام اللغة لنقل التقنية للأجيال التالية، (Wadley, L., & Others, 2009:9591) ومن ثَمَّ فإن استخدام النار في تلك التقنية، يعكس السيطرة الماهرة على النار من قبل الإنسان البدائي، ويشير إلى نقطة تحول فريد في تاريخ الإنسان، فقد كان أولئك البشر في غاية الذكاء، مما يخالف الصورة النمطية لإنسان الكهوف (Vaquero. M.,2008:3178)

وفي مصر ثبت استخدام النار في فصل الكتل الحجرية من محاجرها وتصنيع الأدوات الحجرية بنفس التقنية التي عرفت منذ العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث في أفريقيا، (Heldal, T., & Storemyr, P.,2015:291) وذلك بإضرام النار وتسخين الحجر لدرجة معينة، ثم تعريضه لدرجة من البرودة فيتم انشطار الكتلة الحجرية إلى شظايا وأجزاء حجرية أصغر يسهل استعمالها في تصنيع الأدوات الحجرية أو المنحوتات الحجرية (Heldal, T., & Storemyr, P.,2015:292) وعثر على أدلة ذلك في محاجر البر الغربي بأسوان، حيث وجدت آثار الحرق والدخان على العديد من الكتل الحجرية سواء المنفصلة أو التي كانت لاتزال عالقة بمحاجرها، وخطوط أو قنوات توضح تأثير النار في الحجر بعد الدق بشدة عليه. (Heldal, T., & Storemyr, P.,2015:294)(شكل:٨)

سادسًا: التعدين

لا تؤرخ بداية عصر التعدين بتاريخ اكتشاف المعدن، بل يبدأ ذلك العصر بتحوير المعادن بواسطة النار، ويعتقد علماء المعادن أن أول استخراج للنحاس من مناجمه الحجرية جاء بفعل المصادفة، حين أذابت نار أوقدها الناس ليستدفئوا، نحاسًا كان لاصقًا بالأحجار التي أحاطوا بها النار، ولقد لوحظت أمثال هذه المصادفة مرارًا في اجتماعات البدائيين حول نارهم في عصرنا هذا، ومن الجائز أن تكون هذه الحادثة العابرة هي التي أدت بالإنسان إلى أن يجعل من هذه المادة المرنة عنصرًا يتخذ منه آلاته وأسلحته، لأنها أيسر من الحجر في صياغته وأدوم في البقاء. (ول ديورانت، ١٩٨٨: ١٧٨) ولقد مر العالم القديم بمراحل عدة من التطور بدء من العصور الحجرية مرورًا بالعصر الحجري النحاسي ثم البرونزي ثم عصر معرفة الحديد إلى أن استطاع الوصول إلى المجتمع المتمدن الحديث (Reardon, A.C.,2011: 73-74) وتشير الكثير من الدراسات أن أول المعادن التي عرفها الإنسان في عصور ما قبل التاريخ كان النحاس ربما لأن بريقه كان يميزه ويلفت النظر إليها أكثر من أي معدن آخر، وربما لأنه يوجد عادة في الصخور بشكل حر مما يسهل الوصول إليه، ويشير العلماء إلى معرفة النحاس ربما كانت ترجع إلى ٤٠٠٠ آلاف عام قبل الميلاد، ثم عرف الذهب والفضة ثم الحديد (Ottaway, B.S.,2001: 87-112) ولسنا بصدد الحديث عن التعدين في حد ذاته، وإنما كأحد الآثار الهامة التي ترتبت على معرفة النار في عصور ما قبل التاريخ.

سابعًا: استخدام النار في صناعة الأواني الفخارية

كان التأمل والمصادفة أولى المحركات التي أدت بالإنسان إلى معرفة العديد من الصناعات والتي كان أهمها الفخار، فربما كانت الصدفة قد أدت إلى وقوع قطعه من الطين أو الصلصال إلى جانب نار موقدة، ولابد أنه لاحظ أن الطين بفعل النار كان قد تغير لونه وأصبح أكثر قساوة، فاستغل الإنسان ذلك الطين في صناعة أواني حفظت له الماء والطعام في البداية، ثم استغلها في طهو طعامه بعد ذلك. (العاني، ٢٠٠٢: ٢٢-٢٣)

لقد عرف الإنسان صناعة الفخار منذ عصور ما قبل التاريخ، حيث استطاع أن يشكل الطين على هيئة معينة، واستطاع أن يحول هذا الطين إلى مادة صلبة عن طريق تعريضه للنار، واستطاع أن يزين الأواني الفخارية بالرسومات والنقوش الجميلة، فصناعة الفخار هي حرفة قديمة جدًا، ولعلها أقدم حرفة في التاريخ، فقد عرفها الإنسان منذ أكثر من ١٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد؛ أي في العصور الحجرية، ويشهد لهذا الأمر الكثير من الآثار التي اكتشفت في الكثير من المناطق حول العالم. (Montague, J.,1981: 273-279) والطريقة التي كان الإنسان يتبعها قديمًا في صناعة الفخار هي التشكيل اليدوي للآنية الفخارية، ثم بعد ذلك كان يقوم بتجفيفها تحت أشعة الشمس، ولكن تطور الأمر فيما بعد وصار يحرقها في النار؛ حتى تصبح أكثر صلابة ومتانة (Spencer, A. J.,1997:44-49) ولقد

استطاع الإنسان في عصور ما قبل التاريخ أن يتحكم في استخدام النار بحيث جعل منها وسيلة طبيعية لزخرفة شكل الإناء واكتسابه أما اللون الأسود أو الأحمر أو ذو الشفة السوداء وذلك بحسب تعرض الإناء الفخاري لدرجة حرارة النار، فكلما اشتدت درجة حرارة النار كلما كان لون الإناء صافي يميل إلى الاحمرار، بينما إذا قلت درجة حرارة النار أصبح الإناء ذو لون أسود أو ذو حافة سوداء كما يتبين في (شكل: 9).

ولقد عثر في هيراكونبوليس على ورش لصناعة الأواني الفخارية اشتملت على بقايا العديد من الأواني الفخارية غير مكتملة الحرق، وعلى بقايا مواقد وأفران بسيطة استخدمت لحرق الأواني الفخارية (Allen, R.O. & Baba, M.,2009:1-23) and M.S. 1982:149-150)، ويبين (شكل:10-11) كيفية حرق الأواني الفخارية من خلال ما تم اكتشافه في ورش حرق الأواني الفخارية بهيراكونبوليس (Baba, M. and Saito, M., 2004:575-589)

ثامنًا: دور النار في العقيدة والفكر الديني خلال عصور ما قبل التاريخ

وقف الإنسان البدائي أمام الكثير من الظواهر الطبيعية مندهشًا ومن ثم خائفًا حائرًا، لأنه يجهل تفسيرها أو تعليلها وطريقة حدوثها ، مما اضطره أمام هذا الكم الهائل من الظواهر التي فرضت عليه الطبيعة التعامل معها والتعايش وإياها، فكان لزامًا عليه أن يبحث عن أسرار حدوثها، ولما أعيته الحيل لعدم توفره على وسائل التفكير المنطقية اللازمة للتفسير والتأويل مما دفعه نحو الميثولوجيا متخذًا منها فلسفة حاول من خلالها الإجابة عن الأسئلة التي تولدها الظواهر الطبيعية التي تستدعي تفسيرًا أو تبريرًا، فاتجه إلى نسج القصص التي عرفت فيما بعد بـ (الأساطير). وتعد الأساطير والخرافات السمة الغالبة في ثقافة الشعوب القديمة، والملجأ الأخير لتفسير الظواهر الطبيعية المبهمة التي قد تحدث في محيطها، كالصواعق والأمطار والعواصف وغيرها. والنار في الأزمنة القديمة لم تكن بالنسبة للناس كما نعرفها اليوم بأنها تفاعل كيميائي بين عنصر الأكسجين والمادة المحترقة ينجم عنها حرارة وغازات أكاسيد الكربون، بل كانت مبهمة ويكتنفها الغموض، وربطها الإنسان الأول بعالم الآلهة والأساطير. (نعمه، ١٩٩٤: ٢٥)

ومن المرجّح أنّ إنسان ما قبل التاريخ أُصيب بالفزع من النار أوّل الأمر، فهو لم يفهمها ولم يعرف من أين جاءت، وربّما تصوّر أنّها من الآلهة أو الأرواح، وبدأ خياله ينسج الأساطير نحوها.. وبعد مضيّ بعض الوقت، تأتّى للإنسان أن يدرك أنّ النار ليست عدوًا بالضرورة، بل يمكن في الواقع أن تكون ذات قيمة عظيمة له، وشيئًا فشيئًا بدأ يقوم بتجارب مع النار، وحاول أن يفهم كيف يمكن التحكّم بها ويسيطر عليها. (Watts, I.,1999: 113-146) فقد كان اكتشاف النار واستعمالها أمر ينطوي على الكثير من الأبعاد العملية والروحية للإنسان، فلقد كانت النار تحمي كهوف الإنسان من الحيوانات المفترسة من ناحية ومن البرد القارس من ناحية أخرى، فجعل استخدام النار الإنسان أكثر قوة من ذي قبل، وبدء يحيطها بهالة من القدسية تنوعت أساليب التعبير عنها في مختلف الثقافات. وبعد أن قامت النار بتحريك النوازع الدينية الأولى باعتبارها المقدس الأول انفتحت أحاسيس الإنسان ومشاعره باتجاه معرفة دين أعلى" حيث بدأت تظهر لبعض ملامح تقديس الإنسان للحيوان (Kulmar, T.,2005: 18) ولقد ارتبط الحيوان بالنار في طقوس افتراسيه مشحونة بالترقب والتأمل، وقد نجد تفسيرا منطقيا في الديانات الطوطمية التي رأت في الحيوان المقدس مبدأ جمع شمل القبيلة وأن افتراسه في طقوس دينية جماعية كان يعني توزع هذا المقدس على أبناء القبيلة حيث يقوم بجمعها في صلة واحدة قوية بما عرف بالطوطم. (الماجدي، ١٩٩٧: ٣٦)

وقد لعبت الحيوانات الدور الرئيس في أساطير اصل النار، إذ قام الإنسان البدائي بتعليل وتفسير بعض ما امتازت به الحيوانات أو الطيور من الوان أو علامات فارقة، إلى تأثير النار على الحيوان، لذلك فأساطير النار ترتبط بعالم الحيوان اكثر من ارتباطها بعالم الطبيعة، ففي أساطير بلاد الرافدين يظهر "إيل" إله النار(Brisch, N.,2008: 15) ويعد الإله " إيل" في اعتقاد الكنعانيين هو من أسس منطقة جبيل أو بيبلوس شمال بيروت، ومن ثَمَّ أطلق عليه أحيانًا اسم الإله "جبيل"، وهو الذى يخرج من العالم الأسفل من بـاطن الأرض في دورات غير متكاملة أو مضبوطة ، ويجمع في طياته بين الخير والشر ليدل على النار بكل أشكالها، فهو مصدر خير أو شر تحدثه النار بالاتجاهين. (الماجدي، ١٩٩٨: ١٠٩)

١/٨-القربان المحروق وحفر النار

كان من ضمن شعائر تقديم القرابين في المعابد أو أمام تماثيل الأفراد في مقابرهم، تقديم القرابين المحروقة، وكان الغرض من تقديم القربان المحروق يتمثل غالبا في نقطتين:-

١- قربان يقدم للآلهة بغرض الإمداد بالطعام الرمزي: (وينطبق نفس الشيء على الأفراد المتوفين)، وكانت القرابين لا تترك حتى تحترق تماما وتختفي في النار، ولكن ربما كان يكتفى فقط بشوائها وذلك لأن قربان الأضاحي لو حرق كلية فلن يتبقى منه ما يوضع على موائد القرابين الموجودة بالمعبد، أو لن يتبقى ما يقدم للكهنة بعد أن يبقى الطعام فترات محدودة على موائد القرابين بالمعبد.

٢- قربان يحرق بغرض استكمال شعيرة إفناء الأعداء، والذي ترمز لهم بهذه الأضحيات المحروقة. (باسم، ١٩٩٩: ١٢٧)

وكانت طقسة تقديم القربان المحروق قد وضحت في أجزاء عدة من مناطق الشرق الأدنى القديم منذ عصور ما قبل التاريخ، إذ عثر على بقايا عظام حيوانية محترقة في كهف هايونيم الذي يقع غرب جبل الجليل بفلسطين، وهو من مواقع الحضارة الناطوفية (Alber, R.M.,2003:461- 480) وربما كانت هذه العظام المحترقة تمثل أما بقايا طعام، أو بقايا قرابين محروقة، وعثر على غرار تلك القرابين في مواقع وكهوف عدة في بلاد الشام (Shahack-Gross, R., O. Bar-Yosef,1997: 439-446)

وكثيرًا ما عُثر على القرابين المحروقة مقترنة باللون الأحمر، مما يشير إلى الدور العقائدي الذى لعبه اللون الأحمر في عقيدة إنسان عصور ما قبل التاريخ، واقترن هذا اللون بعادات الدفن، وتقدمة القرابين وبعض الممارسات الطقسية الأخرى في حضارات عدة سواء في أفريقيا أو بلاد الشرق الأدنى القديم، ففي أفريقيا ظهر الهيماتيت أو أكسيد الحديد في العديد من الكهوف والمآوى الصخرية التي ترجع للعصر الحجري القديم الأوسط (Watts, I.,2002:1-14) وفى بلاد الشام عثر عليه أيضا في العديد من الكهوف التي كان من بينها كهف جبل قفزة ، وفى الأناضول تم العثور على دلائل أثرية تجمع ما بين القربان المحروق واللون الأحمر في تركيبة طقسية سحرية واضحة، إذ عثر على بعض من القرابين المحروقة التي وضعت عن قصد في مواقد جنائزية مجصاة وملونة بالأحمر في أحد مقاصير العبادة التي تؤرخ بالعصر الحجري الحديث في المستوى الثاني من شاتال هويوك بالأناضول، وذلك ضمن مجموعة من الودائع الجنائزية الأخرى، وظهر تأثير الحرق فقط على الحبوب النباتية المتفحمة دون سواها مما كان موضوعا في تلك الودائع الجنائزية الموضوعة بالمقصورة. (Mellaart,J.,1967: 78)

٢/٨-حفر النار

كانت حفر النار أحد المظاهر المرتبطة بعادات الدفن والتقدمة الجنائزية في عصور ما قبل التاريخ، ووجدت حفر النار بكثرة في جبانات عصر ما قبل وبداية الأسرات في العراق، لاسيما جبانة أور وأريدو.. وهي تظهر دور النار في العقيدة والفكر الديني لإنسان بلاد الرافدين، إذ كانت النار وسيلة هامة تلعب دور طقسي باعتبارها الرباط الذي يصل ما بين الموت والحياة، وهي وسيلة للتطهير وتنقية الإحساس من الفظاظة والأخطاء، ولقد تعددت التفسيرات بشأن حفر النار، فربطها البعض برمزية معينة باعتبارها وسيلة جيدة للتعبير عن نوع معين من الاحتفالية الجنائزية الخاصة بالمتوفى والتي تزوده بقوة الحياة، فكما كانت تزوده في الحياة بالطاقة اللازمة لإنجاز أعماله، جعلت معه في المقبرة كوسيلة لإعادة ميلاده وتجديد حياته. (Wright,G.R.H.,2002: 90-91)

٣/٨-هيكل النار وأرواح البشر

تعتمد دراسة عصور ما قبل التاريخ على الاستقراء، والاستنباط ومقارنة الحاضر بالماضي، ومن ثَمَّ كانت دراسة ثقافة القبائل البدائية وأصحاب الديانات الوضعية واحدة من أهم الوسائل التي تساعدنا على فهم طبيعة عقائد وفكر إنسان عصور ما قبل التاريخ، ولقد كانت الديانة الزرادشتية واحدة من الديانات الوضعية التي وضح فيها دور النار وأهميتها، إذ رأى زرادشت الذي نسبت إليه الديانة الزرادشتية كان كاهنًا وبحكم طبيعته الدينية رأى أن طقوس النار القديمة هي رمز النور والقانون الكوني للإله، واعتقد أصحاب تلك الديانة أن الماء والهواء والنار والتراب عناصر طاهرة وقدسوا النار خصوصًا، واتخذوها رمزًا إلى جانب الشمس "لقوة الإله"، ولذا حرصوا على بقاء شعلة النار مشتعلة في هياكلهم بالمعنى الرمزي والمعنوي، وكانوا يقدمون لها وقودًا من خشب الصندل، وأخشاب عطرية أخرى، فتعبق الهياكل بروح قدسية فيها النشوة والطهر والخلود. (بارندر، ١٩٩٣: ١٠٤) وتمارس في هياكل النار طقوس وممارسات شعائرية الغرض منها التقرب إلى الإله "أهورا مازدا"، ويحتم على الكهنة الذين يمارسون طقوس النار في هياكلهم أن يشعلوا ويراقبوا ويطهروا النار المقدسة، ويزودونها بخشب الصندل، وهم يتلون الصلوات والأدعية وأفواههم مغطاة – مثل الأطباء – خشية أن تتنجس النار المقدسة من أنفاسهم. (سعد، د.ت: ١٥٨)

وفى العقيدة أو الديانة الشامانية التي ترجع جذورها الأولى إلى عصور ما قبل التاريخ، كان للنار دور هام، ولازال للشامانية تواجدها في الوقت الحالي لدى العديد من القبائل البدائية في بقاع عده من العالم، ففي قبائل (البوريات) إحدى قبائل المغول يُعتقد أن للنار روحًا تسكن فيها ومنها تُخلق الأرواح في سائر البشر، لهذا لا يخلو قطعًا أي بيت من بيوت أفرادها من موقد النار، وفي معتقدات البوريات تعاليم صارمة تجاه النار، ومنها تحريم رمي النفايات والأوساخ داخلها، لأن ذلك يهين روحها، وكذلك يمنع تحريكها بسكين أو آلة حادة فقد يعرض روحها للجرح أو الأذى، فتأذي روح النار معناه حلول اللعنة على المكان الذي تأذت فيه وعندها لن تستثني اللعنة أحدًا يعيش في ذلك المكان، هذه القدسية المفرطة للنار كان لابد أن يصاحبها طقوس خاصة، والتي منها تقديم القرابين والأضاحي لها بشكل دوري ومنتظم، وأن يتكفل أحدهم برعايتها والاهتمام بها، هذا المتكفل بروح النار عليه أن يتسم بسمات معينة، وأن يكون وريثًا لهذه المهمة المقدسة، وعادة ما يطلق عليه اسم (شامان) (Smart, N., 1959: 53)

خَاتِمَةٌ

كانت المصادفة ثم التجربة هي أولى خطى الإنسان نحو معرفة واستخدام النار، ولقد تعلم الإنسان تفادي النار قبل أن يتعلم السيطرة عليها، وبسيطرة الإنسان على النار استطاع أن يتحكم في بيئته.

كان تأمل الإنسان في عصور ما قبل التاريخ للبيئة من حوله يكفي وحده لتحفيزه حتى يكتشف أسرار الوجود، فراح بخياله ينسج أفكار ومعتقدات حول الآلهة والنار وتقديسها وكيفية إرضائها، وربما كان الإنسان البدائي قد تخيل النار التي تحركها الرياح وتنقلها من مكان إلى مكان، أشبه في ناظريه بـ "أجنحة النار" ترفرف لتنقل النور والنار في ثنائية يخافها ويحتاج إليها.

أثرت النار في حياة الإنسان البدائي، إذ باستئناسه لها والتحكم فيها استطاع أن يضئ ظلمات كهفه، وأن يصور بيئته بكل مفرداتها على جدران تلك الكهوف، ومن ثَمَّ يمكن اعتبار فن الكهوف أحد إبداعات النار في عصور ما قبل التاريخ.

كانت النار سبب في شعور إنسان عصور ما قبل التاريخ بالأمان، فجعلته أكثر اطمئنانا على حياته، سواء أبات في كهف أو بات في الخلاء، فقد أبعدت عنه النار الوحوش الكاسرة وأضاءت له ظلمة الليل وأمدته بالدفيء من قسوة الطقس البارد، كما مكنته من تناول طعامه بأسلوب أيسر وأسهل بمعرفته طهو الطعام.

ارتقت النار بحاسة التذوق لدى الإنسان البدائي، إذ عدلت وغيرت من طبيعة ما كان يتناوله من طعام نيئ، إلى أخر مطهو فبدأ يدرك منافعها ودورها في حياته.

لعبت النار دور هام في حياة إنسان عصور ما قبل التاريخ، إذ حولته من طور الاستهلاك إلى طور الإنتاجية والتصنيع، فعرف صناعة الأواني الفخارية، وعرف صناعة الأدوات الحجرية وعرف التعدين فتعدلت بذلك سلوكيات وأنماط حياته.

إذا كانت النار قد أثرت وغيرت في دنيا الإنسان الأول، فإنها أيضًا غيرت وأثرت في دينه وفكره ومعتقداته وتصوراته بشأن العالم الأخر والآلهة، وغيبيات تخيلها ونسج حولها ما عرف فيما بعد بالأساطير، واحتلت النار دور هام في هذه الأساطير. وكانت الديانات الوضعية في العصر الحالي خير دليل على ما كان سائدا لدى إنسان عصور ما قبل التاريخ من أفكار عقائدية ربطته بالنار.

الملاحق

(شكل:١)

أداة صوانيه استخدمت لإشعال النار من قبل إنسان النياندرتال –محجر كامبيتلو بإيطاليا – ٢٠٠,٠٠٠ ق.م.

Roebroeks, W., on the earliest evidence for habitual use of fire in Europe, in: PNAS, Leiden, vol.108, 2011, p.5210, fig.1.

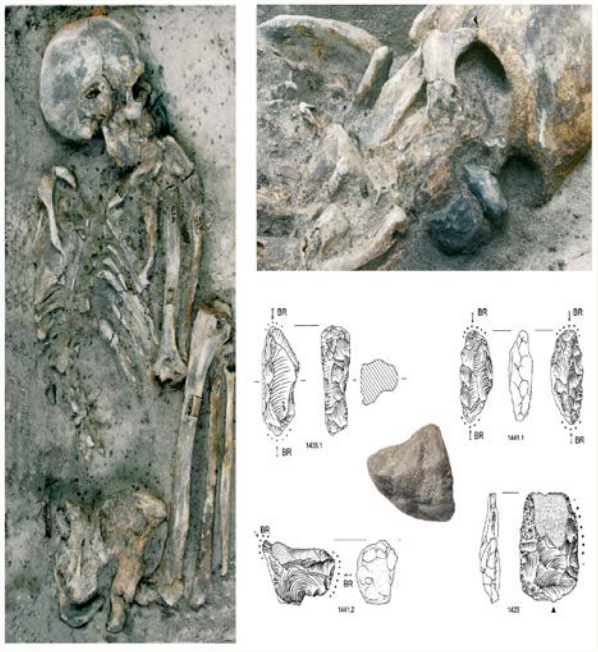

(شكل:٢)

دفنه من العصر الحجري الحديث محاطة بثلاثة من أدوات الطرق للإشعال النار – هولندا

Sorensen, A.C., The Invisible Fire Starters A use wear-based approach to identifying evidence of fire production by Neanderthals, Leiden, 2012, p.20, fig.1.2.

(شكل:٣)

إعادة تخيل لسيدة من العصر الحجري الحديث

تشعل النار داخل الكهف بطريقة الاحتكاك

Robert J. & others, The Neolithic Revolution and the Birth of Civilization, in: Early Human Societies, 2.5 million–1000 B.C.E.: Origins and Development, London, 2009, fig.1.1.

(شكل :٤)

مثقاب لإشعال النار

من متاع الملك توت عنخ أمون بالمتحف المصري

Egyptian Museum, JE 61322A, B

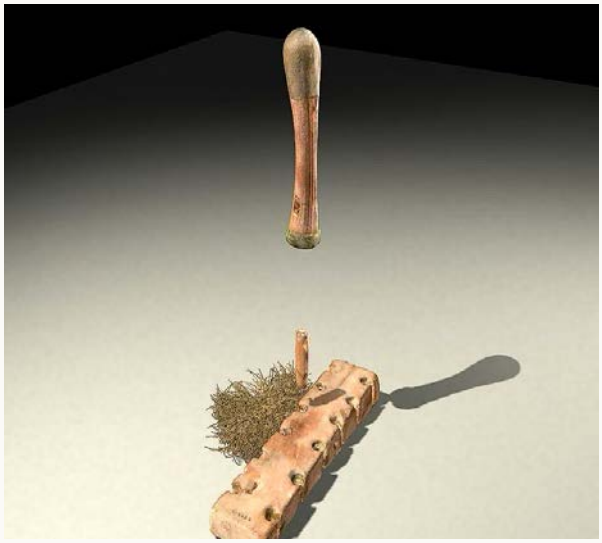

(شكل:٥)

شرح لكيفية استخدام المثقاب في إشعال النار

http://www.globalegyptianmuseum.org

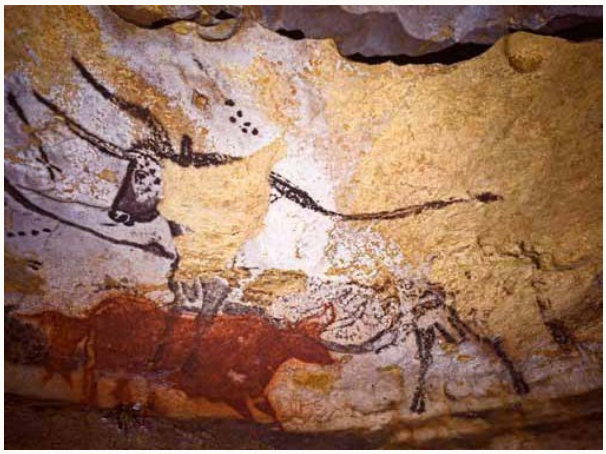

(شكل:٦) "صالة الثيران" احدى لوحات كهف لاسكو بفرنسا

Mauriac, M., Lascaux the history of the discovery of an outstanding decorated cave, Paris, 2011, p.10, fig.13.

(شكل:٧)

جمجمة إنسان الهوموهابيليس واختلاف شكل وحجم الفك والجمجمة

Alles, D.L., & Others, A Review of Current Research on Human Evolution, U.S.A, 2008, p.36.

(شكل:٨)

منظر يوضح تأثير النار على الحجر تكسيره بسهوله

محاجر البر الغربي بأسوان

Heldal, T., & Storemyr, P., Fire on the Rocks: Heat as an Agent in Ancient Egyptian Hard Stone Quarrying, G. Lollino et al. (eds.), Engineering Geology for Society and Territory – Volume 5, Switzerland 2015, Fig. 56.1

(شكل: ١٠)

منظر يوضح فرن حرق الأواني الفخارية – بـ "نخن"

هيراكونبوليس HK11C

Friedman, R., "Predynastic Kilns at HK11C: One Side of the Story", in: *Nekhen News*, vol.16, p.17.

اناء فخاري أسود اللون- البدارى – متحف بترى UC9045

اناء فخاري ذو شفة سوداء- البدارى – متحف بترى UC14515

(شكل:٩)

تأثير النار في تغيير لون الأواني الفخارية عند حرقها

Wodzińska, A., A Manual of Egyptian Pottery Volume 1: Fayum A–Lower Egyptian Culture AERA Field Manual Series 1, Poland, 2009, Plate 4.1 - Plate 4.5.

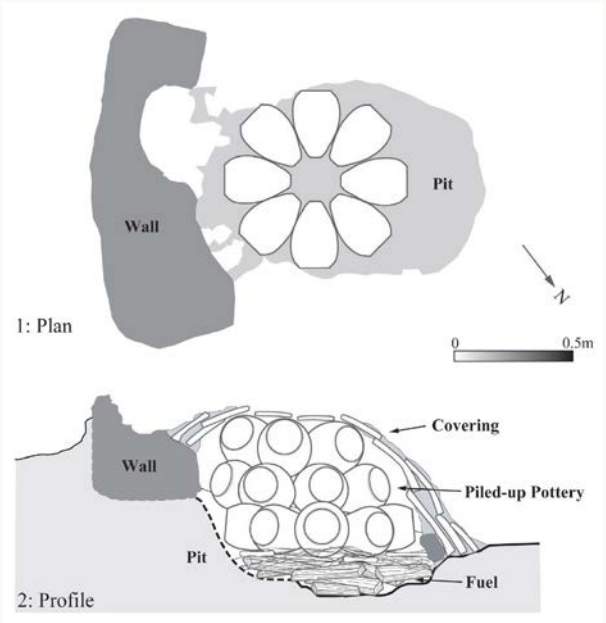

(شكل:١١)

رسم توضيحي لفرن حرق الأواني الفخارية في "نخن"

هيراكونبوليس

Baba, M., Pottery production at Hierakonpolis during the Naqada II period: Toward a reconstruction of the firing technique, in: British Museum Studies in Ancient Egypt and Sudan, 13, London, (2009), fig.15.

قائمة المراجع العربية والمترجمة

- إبراهيم، عبد الواحد عبد السلام، **الإضاءة ووسائلها في مصر الفرعونية**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٧.
- أبو غنيمة، خالد محمود، **أنماط المعيشة ودورها في تكوين التشكيلات الاجتماعية في عصور ما قبل التاريخ**، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد الرابع، العدد الأول، ٢٠١٠.
- بارندر، جفري، **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، الكويت، ١٩٩٣.
- ديورانت، ول، **قصة الحضارة، نشأة الحضارة الشرق الأدنى القديم**، المجلد الأول، بيروت، ١٩٨٨.
- سعد، حبيب، **أديان العالم**، القاهرة، (د.ت).
- سيد باسم، محمد، **النار في الحضارة المصرية القديمة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٩٩.
- صالح، عبد العزيز، **حضارة مصر القديمة وآثارها**، ج١، القاهرة، ١٩٨٠
- العاني، دحام إسماعيل، **موجز تاريخ العلم**، الجزء الأول، الابتكارات الأولية المؤسسة للعلم، الرياض، ٢٠٠٢.
- غلاب، محمد السيد، **تطور الجنس البشرى**، القاهرة، ١٩٨١
- غلاب، محمد السيد، الجوهري، يسرى، **الجغرافية التاريخية، عصر ما قبل التاريخ وفجره**، الإسكندرية، ١٩٩٧.
- الماجدي، خزعل، **أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ**، دمشق، ١٩٩٧
- الماجدي، خزعل، **متون سومر، الكتاب الأول، التاريخ، الميثولوجيا، اللاهوت، الطقوس**، ط١، دمشق، ١٩٩٨
- مونتاغيو، أشلي، **البدائية**، مترجم، الكويت، ١٩٨٢.
- نعمه، حسن، **موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة وأهم المعبودات القديمة**، بيروت، ١٩٩٤.

قائمة المراجع الأجنبية

- Alber, R.M., Quantitative Phytolith Middle Paleolithic Levels of Hayonim Cave (Galilee), *Journal of Archaeological Science*, 30, (2003), pp. 461–480
- Allen, C. D., lots of lightning and plenty of people: an ecological history of fire in the upland southwest, in: Thomas R. Vale (edit.,) FIRE; native peoples and the natural landscape, London,2002, pp.143-150.
- Allen, R.O. and M.S. Rogers. Preliminary Findings of the Technology of Ceramic Manufacturing at Hierakonpolis, in M.A. Hoffman (ed.), The Predynastic of Hierakonpolis - An Interim Report. Egyptian Studies Association Publication 1. Cairo, 1982, pp. 149-150
- Alperson-Afil, N., Richter, D., & Goren-Inbar, N., Phantom hearths and the use of fire at Gesher Benot Yaàqov, *PaleoAnthropology Society*, Israel 2007.
- Baba, M. and Saito, M., "Experimental Studies on the Firing Methods of the Black-topped Pottery in Predynastic Egypt", S.Hendrickx, R.F.Friedman, K.M.Cialowicz and M.Chlodnicki (eds.), Egypt at its Origin. Studies in Memory of Barbara Adams, Leuven, 2004, pp.575-589.
- Baba,M., Pottery production at Hierakonpolis during the Naqada II period: Toward a reconstruction of the firing technique ,in: *British Museum Studies in Ancient Egypt and Sudan* , 13,London, (2009): pp.1–23
- Bellomo R.V., Methods of determining early hominid behavioral activities associated with the controlled use of fire, *Kenya*, vol 27, (1994), pp.173–195
- Bird, M., Fire, prehistoric humanity, and the environment, in: *Interdisciplinary Science Reviews*, vol.20, No.2,1995.
- Brisch, N., Religion and power, divine kingship in the ancient world and beyond, in: *Oriental institute Seminars*, number 4, Chicago, 2008.
- Burton, H., Tutankhamun: Anatomy of an Excavation; The Howard Carter Archives, Griffith Institute, Oxford, 2000 – 2004, p1317.
- Charvat, p., Mesopotamia before history, London,2002.
- Clark, L., "The Still Bay and Pre-Still Bay Fauna from Sibudu Cave (South Africa): Implications for Understanding Behavioral Variability in the Southern African Middle Stone Age", in: *Paleo Anthropology Society* , 2015,pp. A1–A39
- De Jesus, S., Origin and early development of food, producing cultures in north – eastern Africa, Poland,1984.
- De Lumley. H., IL y a 400 000 ans: la domestication du feu, un formidable moteur d'hominisation. C R, *Paleorient*, vol., 5, Paris, (2006), pp.149–154.
- Desmond, C., the human revolution from the Ape to Artist, London, 1976, p.106.
- Early Humans and Their Culture, in: The Birth of Civilization, part.1, 2010.
- Fowler, C., & Konopik, E., The History of Fire in the Southern United States, Special Section on Fire Human Ecology, *Human Ecology Review*, Vol. 14, No. 2, 2007, pp.167-177.
- Genty D., Dating the Lascaux Cave gour formation, Vol 53, Nr 3, Paris, 2011, p. 479-500
- Gilligan, I., The Prehistoric Development of Clothing: Archaeological Implications of a Thermal Model, *Journal of Archaeological Method and Theory*, 17 (2010).
- Goldberg, P., & Others," Bedding, hearths, and site maintenance in the Middle Stone Age of Sibudu Cave, KwaZulu-Natal, South Africa", in: *Science*, 2009, Vol. 1, pp. 95–122.
- Heldal, T., & Storemyr, P., Fire on the Rocks: Heat as an Agent in Ancient Egyptian Hard Stone Quarrying, G. Lollino et al. (eds.), Engineering Geology for Society and Territory – Volume 5, Switzerland 2015, pp.291-295.
- Heinselman, M.L., Fire in the virgin forests of the Boundary Waters Canoe Area, Minnesota, 3, 1973,

Freestone and D. R. M. Geimster, London, 1997, pp.44–49.

- Stephens, S., & Others, Prehistoric fire area and emissions from California's forests, woodlands, shrublands, and grasslands, in: *Forest Ecology and Management*, vol.251, Mexico, (2007), pp. 205–216
- Steven R.J., Hominid Use of Fire in the Lower and Middle Pleistocene: A Review of the Evidence, Current Anthropology, Chicago, 30,1989, pp.1-26.
- Vaquero. M., The history of stones: Behavioural inferences and temporal resolution of an archaeological seemblage from the Middle Palaeolithic, in: *Journal of Archaeological Science*, 35, *Philadelphia*, 2008, pp.3178–3185
- Wadley, L., & Others "Implications for complex cognition from the hafting of tools with compound adhesives in the Middle Stone Age, South Africa", in: *Proceeding of the National Academy of Science of the United States of America*, Vol. 106 (24), 2009, pp. 9590–9594
- Watts, I., " Ochre in the Middle Stone Age of Southern Africa: Ritualised Display or Hide Preservative?", in: *The South African Archaeological Bulletin*, Vol. 57, No. 175 (Jun., 2002), pp. 1-14.
- Watts, I., The origin of symbolic culture. In: Dunbar, R., Knight, C. & Power, C. (eds) The evolution of culture, Edinburgh, 1999.
- Weiner, S., Goldberg, J., Bar-Yosef, Evidence for the use of fire at Zhoukoudian, China, *Science*, 281, New York (1998) 251–253.
- Wright, G.R., H., "the fire of life and the fire of death", in: *Journal of prehistoric Religion*; vol.16/17,2003, pp.53-56
- Jacobs, Z., & Others,"Ages for the Middle Stone Age of southern Africa: Implications for human behavior and dispersal", in: *Science*, Vol. 322, 2008, pp.733-735.
- Jidéjian, N., Byblos through the ages ،Dar al Machreq, Bayreuth, 1968
- Kakade M.L., & Liener.I.L., "The increased availability of nutrients from plant foodstuffs through processing" in: Rechcigl.M., (editor) Man, food, and nutrition, Cleveland, 1973, p 231-241.
- Kulmar , T., on supreme sky god from the aspects of religious history and in prehistoric Estonian material, in: *FEJF*,31 , Turku ,2005.
- Marshack, A., The roats of civilization, New York, 1991, p.172.
- Mauriac, M., Lascaux the history of the discovery of an outstanding decorated cave, Paris, 2011.
- Mellaart, J., Çatal Ḧüyük, A Neolithic town in Anatolia, New York, 1967.
- Montague, J., The Conch in Prehistory: pottery, stone and natural, in: *World Archaeology*, vol. 12:3, 1981, pp. 273- 279.
- Ottaway, B.S., Innovation, production and specialization in early prehistoric copper metallurgy, in: *European Journal of Archaeology*, vol .4 (1), 2001, pp.87-112.
- Parker, C.H., on the evolution of human fire use, a dissertation submitted to the faculty of The University of Utah in partial fulfillment of the requirements for the Doctor of Philosophy degree of Department of Anthropology, the University of Utah, May 2015.
- Pausas, J., & Keeley, J. E., A Burning Story: The Role of Fire in the History of Life, *Bio Science*, Vol. 59, No. 7, 2009, p.595.
- Reardon, A.C., Discovering Metals— A Historical Overview, in: Metallurgy for the Non-Metallurgist, New York,2011.
- Robert J. & others, The Neolithic Revolution and the Birth of Civilization, in: Early Human Societies, 2.5 million–1000 B.C.E.: Origins and Development, London, 2009.
- Roebroeks, W., on the earliest evidence for habitual use of fire in Europe, in: *PNAS*, Leiden, vol.108, 2011, p.5210, fig.1.
- Salo, U., Fire-Striking Implements of Iron Age and Finnish Myths of the Birth of Fire, in: *Scripta Archaeologica*, vol.9, Turku, 1990.
- Shahack-Gross, R., O. Bar-Yosef, and Weiner, S., Blackcoloured bones in Hayonim Cave, Israel: differentiating between burning and oxide staining, *Journal of Archaeological Science*, 24, 1997, pp. 439–446.
- Smart, N., the Religious Experience of Mankind, in: *The Encyclopedia Britannica,* Vol. 8, (1959).
- Sorensen, A.C., The Invisible Fire Starters A use wear-based approach to identifying evidence of fire production by Neanderthals, Leiden, 2012.
- Spencer, A. J., Pottery in Predynastic Egypt. In: Pottery in Making. World Ceramic Traditions, edited by I.